الداوسية

لقد كانت الكونفوشيوسية الديانة الرئيسة، النظام الاجتماعي الأساس في الصين. بيد أنها لم تكن النظام الوحيد فيها. فتعاليم كونفوشيوس لم تتطرق إلى الأسئلة التي أقلقت الإنسان على مر العصور، وفي كل مكان من الدنيا: هل الروح خالدة؟ هل هناك حياة أخرى؟ ما الذي يحدث للإنسان بعد الموت؟ و... وقد قال كونفوشيوس في هذا الصدد: «نحن لا نعرف كنه الحياة، فأنّى لنا أن نعرف كنه الموت».

ومع ذلك شاعت في أوساط الشعب دوماً، تصورات محددة عن الأرواح والحياة الأخرى. ولكن العقلانية الصينية أوقفت امتداد مثل هذه الرؤى، فلم تتحول إلى رؤى رائدة في المجتمع. أما الداوسية فإن الفيلسوف لاو - تسزي هو أبوها الذي أنشأها. وكان هذا معاصراً لكونفوشيوس. وعلى امتداد تاريخ الصين كله، حتى يومنا هذا، كانت الداوسية تتطور بموازاة الكونفوشيوسية، ولكن هذه الأخيرة كانت تشغل دائماً المكانة الأولى في الدولة. أما الداوسية فلم تسع إلى هذا في أي يوم من الأيام. ومع ذلك أثبتت قدرتها على العيش.

لقد كانت للتعاليم الفلسفية الدينية الداوسية تأثير كبير جداً في الثقافة الصينية كلها، ثمَّ تجاوزت حدود الصين إلى ثقافات بلدان آسيا الأخرى: فيتنام، وكوريا، واليابان. فمدرسة إيزين اليابانية مثلاً، تكونت من مركّب تعاليم الداوسيين والتعاليم البوذية الآتية من الهند. كما تقوم أفكار الداوسية في أساس الفنون القتالية المعروفة في الشرق الأقصى، مثل التيتسزي - تسيوان، و... وعلى هذه الأفكار نفسها، تأسست أفكار مد أمد العمر، بل قام عليها أيضاً الطب التقليدي الصيني على وجه العموم. وترتبط الداوسية بكثير من العلوم الباطنية: علم التنجيم، والكيمياء، وعلم الفراسة، والسحر.

وعرضت أسس تعاليم الداوسية في كتاب لاو - تسزي، «كتاب الطريق والغبطة» (داو دي تسزين). ويشغل هذا الكتاب في الداوسية، المكانة نفسها التي يشغلها كتاب العهد الجديد في المسيحية، والقرآن في الإسلام.

لقد عاش لاو - تسزي وأنتج، في القرن 6ق.م...، وقد كان ذلك العصر عصراً مميزاً في تاريخ البشرية. ففي العام الذي ترك فيه لاو - تسزي الصين وتوجه غرباً نحو الهند، ولد بوذا. وفي هذا الوقت نفسه كان فيثاغورس يبدع في دول المدن الإغريقية الإيطالية. وقبل ذلك بقليل كانت قد ظهرت إبداعات زارادشت العظيم، في المكان الذي تقاطعت فيه دروب حضارات الصين، والهند، والبحر المتوسط. وفي العصر نفسه شاعت مواعظ أنبياء التوراة، وحكمة حكماء الكلدانيين. وبعد قليل ظهرت إبداعات سقراط في الغرب، ومو - تسزي في الشرق. وقد بشر هذا الأخير بالحب الكلي الشامل الذي دخل الديانات والتعاليم الحقة كلها. ضف إلى هؤلاء كلهم كونفوشيوس، الذي عاصر لاو - تسزي. لقد كانت لحظة ساطعة في تاريخ الجنس البشري، لحظة تعرض فيها هذا الأخير «لصدمة باسيونارية»[1] تلقاها من العقل الكوني (وفق رؤية ل. ن. غومليوف). ففي زمن تاريخي وجيز، خرجت إلى الوجود الأفكار الأساسية القادرة على قطْر البشرية وراءها. ومن الوجهة العملية، حددت تلك الأفكار كل مسيرة العملية التاريخية اللاحقة، وقامت في صلب مختلف الديانات التي نشأت بعد ذلك.

ونحن لا نعرف عن مؤسس الداوسية إلا النذر اليسير. فكلمة لاو - تسزي تعني «الفيلسوف القديم». كما يمكن ترجمتها كذلك بمعنى «الطفل القديم». وكلنا يعرف عن الأطفال الجديين الذين يدعونهم لشدة ذكائهم، «بالعجائز». ويبدو أن لاو - تسزي كان طفلاً من هذا النمط. أما اللقب الحقيقي لهذا الفيلسوف، فهو «لي»، واسمه «زي». واستخدم إضافة إلى هذا اسماً مستعاراً، هو «هاكويان». ويفترضون أن لاو - تسزي ولد في قرابة العام 604ق.م، وقد عاش والداه في قرية كيكو - زين من دائرة ليي في مقاطعة كوك التابعة لمملكة سو، التي كانت تقع غير بعيدة عن موقع مدينة بكين الآن. وليس معروفاً ماذا كان يعمل والدا لاو - تسزي. فقد حمل الرجل لقب لي انتساباً لأمه، واختار لقب والده هاكويان اسماً مستعاراً له. ولا شك في أن لاو - تسزي، قد نال قسطاً جيداً من التعليم. وهذا

١- روحانية. - المترجم.

ما يشهد عليه واقع وجوده موظفاً في جهاز الدولة (كان ناظر المكتبة الحكومية: الأرشيف). وكتب لاو - تسزي عن نفسه قائلاً: «كثير من الناس يملك ثروات، وأنا لا أملك شيئاً، كأني أضعت كل شيء»، وقال أيضاً: «أنا أعطي الحسنات في خوف عظيم». لقد كانت الوظيفة التي يشغلها توفر له الموارد الضرورية لعيش كريم.

كان لاو - تسزي متزوجاً، وكان ابنه سو يعمل في القوات المسلحة، وهي المهنة التي كان الوالد يرفضها دوماً.

ومن أثناء عمله ناظراً للمكتبة الإمبراطورية، توفرت للاو - تسزي فرصة لا تقدر بثمن لكي يتمم معارفه، فالمكتبة كانت أكبر مخزن للكتب في الصين كلها. ويتضح من كتابه «كتاب الطريق والغبطة»، أن لاو - تسزي لم يكن راضياً عن الحكمة العملية لشعبه، لا سيما وأنه قد توافرت له إمكانية دراستها كاملة. لقد فتحت الخدمة لدى الإمبراطور عيني هذا الفيلسوف على أن السياسة عمل قذر. وكانت هذه الحقيقة حقيقة منصفة في تلك الأزمنة أيضاً، بل في الأزمنة كلها.

لقد ترك لاو - تسزي العمل الحكومي وهو في سن النضج. وبرّر قراره هذا بعدم رضاه عن سير الشؤون الاجتماعية والسياسية. ثمَّ اعتزل وحيداً في كهف، الأمر الذي كان غريباً بالنسبة للصين. وعلى وجه العموم، لم يكن لاو - تسزي شخصية صينية في أشياء كثيرة. وفي معتزله كرس لاو - تسزي حياته للتأمل والتفكير. وأثناء السنوات التي صرفها في الكهف، فكّر في أسس الداوسية وصاغها في كتابه الذي أشرنا إليه أعلاه: «كتاب الطريق والغبطة». لقد كتب لاو - تسزي في هذا الكتاب يقول: «عندما تتكلل الأعمال بنجاح باهر، ويغدو اكتساب اسم طيب حقيقة واقعة، فإن الاعتزال يغدو أفضل تصرف. وهذا هو الداو السماوي بعينه».

وفي آخر المطاف عزم لاو - تسزي على مغادرة الصين، وترك بلاد البرابرة عبر الحدود الغربية (إلى الهند). ويرى بعض المستشرقين في هذا رمزاً يدل على صلة كتاب لاو - تسزي بالغرب.

وترد أكثر المعطيات يقيناً عن لاو - تسزي في كتاب «مذكرات تاريخية»، الذي وضعه المؤرخ الصيني الأكبر صيم - تسيان (145-86ق.م). وجاء فيه: «يظن بعضهم أن لاو - تسزي عاش مئة وستين عاماً، ويظن آخرون أنه عاش مئتي عام، وأن طوال العمر هذا جاءه بفضل حياة البر التي عاشها ملتزماً مبادئ الداو». وعن المظهر الخارجي للاو - تسزي كتب صيم - تسيان يقول: «كان لاو

- تسزي طويل القامة، وجهه أصفر اللون، حاجباه جميلان، أذناه طويلتان، جبينه عريض، أسنانه متباعدة وجميلة، فمه مربع الشكل، وشفتاه غليظتان وقبيحتان».

وتختلف تعاليم لاو - تسزي (الداوسية)، اختلافاً مبدئياً عن تعاليم كونفوشيوس. والواقع أنه كان ينبغي أن تختلفا، لأن كلا منهما عالج موضوعات مختلفة، وطَرقَ ميادين مختلفة. فموضوع تعاليم كونفوشيوس، هو المعاناة الدنيوية، أما الموضوع الأساس عند لاو - تسزي، فهو إمداء الروح المشرقة. وبينما اتجهت تعاليم كونفوشيوس نحو جعل حياة الجماعة، حياة المجتمع أفضل، فإن تعاليم لاو - تسزي، كما تعاليم سقراط، قلبت بمعاكساتها الدائمة المدلول البدئي السليم، وهزت ثوابت التفكير المعتاد المبتذل. لقد سعى لاو - تسزي إلى إخراج الفكر البشري خارج حدود المدلول المعتاد، وفتح المدى الكوني أمامه. ولذلك لا ينبغي أن نعاكس هذا بذاك، إنما علينا أن نعي أن كلاً منهما يكمل الآخر.

ومع ذلك فإنه لا ضير من أن نتوقف قليلاً عند معاكسة تعاليم لاو - تسزي بتعاليم كونفوشيوس، لا لأن معاصريهما قد فعلوا هذا منذ آلاف السنين، بل لأن هذه الوقفة تقدم لنا فرصة لفهم جوهر تعاليم لاو - تسزي فهماً أفضل.

وثمَّة قصة مثل في الكتاب الصيني القديم «ربيع السيد ليوي وخريفه»، تقول: «فقد أحد سكان مملكة تسزين قوسه، لكنه لم يبحث عنه، وقد علّل سلوكه هذا على النحو الآتي: «امرؤ من تسزين أضاع، وامرؤ من تسزين وجد، فما الفرق؟».

ولما سمع كونفوشيوس هذا قال: «يجب فقط أن تحذف كلمة «من تسزين»، وعندئذٍ يستقيم الأمر!» ولكن عندما سمع لاو - تسزي هذا عينه قال: «يجب أن تحذف كذلك كلمة امرؤ، وعندئذٍ يستقيم الأمر!» «يبقى كونفوشيوس دائماً على المستوى الإنساني العام، فهذا هو المستوى الأعلى الممكن بالنسبة إليه، حيث أكثر مفاهيم الدين تجريداً وسمواً، تنعكس بهيروغليف رمزه المفتاحي الإنسان» (كلمة جين معناها، الرحمة). ولكن لاو - تسزي يذهب بالمسألة إلى الأعمق، فيرتفع إلى الفكرة النقية، إلى المستوى الذي تجاوز الإنساني نحو الكوني. وفي هذه الحال، فإن كل شيء نسبي من الوجهة العملية، فيندغم الاكتساب بالفقدان. ولذلك قال لاو - تسزي: «أيتها البلية! عليك تستقر السعادة. أيتها السعادة! أنت تقفين على البلية».

وقد نقل إلينا مختلف المصادر الصينية القديمة معلومات عن لقاء جرى بين كونفوشيوس ولاو - تسزي. فقد روى لنا غي هون مثلاً، أن كونفوشيوس أحس بالخزي، وكان مشتتاً بعد لقائه مع لاو - تسزي، لأنه قابل فكراً على مستوى أعلى (ويذكر في هذا السياق أن غي هون هذا كان داوسياً).

واعترف كونفوشيوس لأحد تلامذته قائلاً: «لقد أدركت أن فكره كالطير يحلق في الأعالي. فصنعت من بلاغتي سهماً لأرمي الطير به، لكني لم أدركه، فضاعفت بذلك مجده. إن فكره كالأيل، كأنه الوعل في الأدغال. فأرسلت بلاغتي كلاب صيد تطارد الوعل والأيل، لكنها لم تصب سوى العرج. إن فكره كالسمكة في نهر عميق. فصنعت من بلاغتي صنارة لاصطياد السمكة بها، لكني لم اصطد شيئاً، وتداخلت الصنارة في بعضها عقداً. أنا عاجز عن مطاردة تنين يحلق وراء الغيم ويتجول في الصفاء الأعظم. لقد أدركت أن لاو - تسزي هو كهذا التنين! ففغرت فمي دهشة، ولم أستطع إطباق شفتي، وفجأة سقط لساني، وتعكرت روحي، ولم أعرف أين يمكث»...

وكتب صيم تسيان عن هذا اللقاء في كتابه «مذكرات تاريخية»، ما يلي: «يوم مر كونفوشيوس في سيو، زار لاو - تسزي لكي يسمع رأيه في الطقوس. فقال له لاو - تسزي: لاحظ أن الذين علّموا الشعب قد ماتوا وبلت عظامهم، لكن كلامهم لا يزال على قيد الحياة حتى اليوم. فعندما تساعد الظروف الحكيم، فإنه سيركب مركبة، أما عندما تعاكسه، فإنه سيمشي على قدميه حاملاً أثقاله على رأسه، وممسكاً أطرافها بيديه. وقد سمعت أن التاجر الخبير يخفي بضاعته كأنه لا يملك شيئاً تقريباً. والأمر عينه عندما يتحلى الحكيم بأخلاق سامية، فإن خارجه لا يوحي بذلك. ارم حكمتك ومعها كل ضرب من ضروب الأهواء، وابق على محبتك لكل ما هو جميل، مع ميل نحو الحس المرهف، لأنه لا نفع من هذا كله بالنسبة إليك، وهذا ما أقوله لك، ولن أقول أكثر من هذا».

وبعد اللقاء قال كونفوشيوس لتلميذه، حسب ما أورده تشجو - تسزي: «.... في إدراك الطريق، كنت كالدودة داخل إبريق مليء خلاً: لو لم يرفع المعلم الغطاء، لما أدركت الوحدة العظمى بين السماء والأرض». وغني عن البيان أن تشجو - تسزي قد زاد من كثافة الألوان كثيراً، لأن كونفوشيوس لا يستحق مثل هذا الهوان. ومع ذلك فإن الصورة التي رسمت لكل من الفيلسوفين في هذا اللقاء، هي واحدة تقريباً في كل المصادر: يستوي لاو - تسزي المجلل ببياض الشيب على القمة، ويقف أمامه كونفوشيوس الأكثر شباباً. وليس الأمر هنا عمراً وحسب، أو مشهداً من مشاهد الحياة اليومية، إنما هو رمز: سيّد أكبر، وسيّد أصغر منه وضيفه. وكان على هذا الرمز أن يعكس هرم القيم الفلسفية.

لقد كان كونفوشيوس يعمل للمجتمع، أما لاو - تسزي فقد وصف هذا المجتمع بأنه جمع من «البقر المقدس». ونظر إلى الدولة والرحمة من زاوية مغايرة تماماً.

فحسب لاو - تسزي أن أسّ الأسس هي الروح، الأم الأولى للوجود. فلاو - تسزي يتجول في رحاب خارجية. ووجوده كله ساع إلى ما هو غير معتاد. وقد تأمل في الموت عبر صلته التي لا تنفصم عراها مع الحياة. ووضع العدم فوق كل وجود. وبينما يسعى كونفوشيوس في تعاليمه إلى تغيير حياة المجتمع نحو الأحسن، فإن لاو - تسزي بقي بعيداً تماماً عن إلقاء أي مواعظ، فلم يكن عنده سوى ثلاثة تلاميذ، لكن واحداً منهم فقط، أفلح وأخذ عن معلمه المعرفة التي تتجاوز الشعور. وقد قامت هذه المعرفة في أن الإنسان كان قادراً على أن يرى ويسمع كل ما في هذا الكون «من غير عينين أو أذنين»، وأنه «غرق روحياً في العدم». ونحن كنا قد بيّنا في كتابنا «الإله، والروح، والخلود»، أنه تحدث في أثناء ذلك مراجعة مباشرة للمعطيات عبر مقارنتها مع حقل الأعلام الكوني. فتعاليم لاو - تسزي لم تكن معدة للنخبة فقط، بل لنخبة النخبة، أي لأولئك الذين كانوا مؤهلين لإدراك الغبطة، واكتساب نفاذ البصيرة، وبلوغ الحكمة الأبدية وليس الدنيوية.

إن لاو - تسزي يرى الأشياء بمقاييس مضاعفة. فهو يرى أننا لا نرى هنا على الأرض سوى الظلال، أما الموضوعات نفسها، فنحن لا نراها. ونشير في السياق إلى أن سقراط قد حلل مفهوم الظل في السياق عينه. فقد رأى أنه يمكن مقارنة الإنسان بالجالس في كهف قرب نار، بحيث لا يستطيع أن يرى سوى ظلال المارة فقط. وليس هذا في واقع الأمر سوى تقليص لأبعاد المكان الثلاثة إلى بعدين اثنين. وعلى هذا المنوال، يتهم لاو - تسزي كونفوشيوس بأنه يحاول أن يحكم على الحذاء، عندما لا يرى أمامه سوى أثره على الأرض.

فتعاليم لاو - تسزي (الداوسية)، هي تعاليم فلسفية عميقة تلامس جوهر العقيدة، وبناء العالم، ومكان الإنسان فيه. لقد رأى هذا الفيلسوف في العالم المحيط به وحدة لا تتجزأ، وحدة تسير وفق قوانين ثابتة. وكان على يقين راسخ، بأن كل ما في هذا الكون الموحد العظيم مترابط بعضه مع بعض، ومتماثل بعضه مع بعض. وعلى المنوال نفسه جاء بناء المعمورة والدولة وجسم الإنسان. فجوهر الأشياء كلها واحد، لأن قوانين الكون قطعيّة، باتّة في كل نقطة منه. وعليه فليس ثمَّة أهمية للزمان، أو لمكان معيّن في المكان الكوني. ولذلك يجب على المرء الحكيم الذي أدرك هذه القوانين، ولو إدراكاً جزئياً، أن يسلك سلوكاً متماثلاً في كل

مكان وزمان. ولهذا السبب فإن تعاليم الحكيم لاو - تسزي لا تشيخ، إنما هي معاصرة دوماً، بل تقدميّة كذلك. واحكموا بأنفسكم: منذ ألفين وخمسمئة عام خلت، أدرك لاو - تسزي أن تراكم البشر في المدن، عمل مهلك للجنس البشري. كما رأى أنه يجب تقسيم التجمعات البشرية الضخمة (المدن)، إلى خلايا صغيرة، وينبغي ألا تستخدم في أماكن سكنى الناس أي حيل تقنية. فالإنسان لا يمكنه أن يعيش سعيداً إلا في شروط طبيعية نقية بكر، إذ في مثل هذه الشروط فقط، يمكن أن تسير حياته منسجمة مع الطبيعة، وعندئذٍ سيعود طعام الإنسان حلواً، وحياته هادئة، وملابسه بديعة بحق. وتتطهر أخلاق الناس وعاداتهم من الكره والعنف، ويغدون سعداء مشرقين، كما في الزمن القديم. ولن يكون للسلاح دور يؤديه في مثل هذه القرى، سوى إبعاد غواية استعماله. ونحن لن نقول إلى أي حد يبدو هذا واقعياً بالنسبة للمجتمع المعاصر، فالإجابة واضحة. وما يبعث الأسى في النفس، أنه إذا ما عبرت البشرية إلى حضارة جديدة تتوافق قوانينها مع قوانين الطبيعة، فإن ذلك لن يكون إلا عبر هزات وكوارث كونية عميقة. ويقف بعضها الآن على عتبة الباب: تهديم طبقة الأوزون، وكارثة العوز المناعي المكتسب (الإيدز).

لقد أدرك لاو - تسزي أن ارتقاء الجنس البشري لن يفضي إلى تقدم حقيقي، بل على الضد من ذلك، سيدفع الإنسان بعيداً عن التواؤم مع الطبيعة. كما عرف لاو - تسزي أيضاً، أن طريق التقدم هذه طريق مسدودة في وجه الجنس البشري. فنحن سكرنا تيهاً إذ شطرنا الذرة، وأوغلنا عميقاً في علم الوراثة، لكننا نقف حائرين مرتبكين لا نعرف كيف ننجو من خطر اكتشافاتنا. وكان لاو - تسزي قد رأى في حينه، إن الأفق مسدود أمام مثل هذا الارتقاء. فدعا إلى العيش في معاشر مغلقة، لأن التقدم يقتلع الإنسان من الجنة، ويقذف به إلى دوامة الزمن التي تسلبه السعادة الحقيقية. إن السلاح الذي صنعه الإنسان لا يحمل سوى الموت والمعاناة. وهذا بدوره يجعل الإنسان بلا روح، فتغدو نجاحاته في نتيجة الحساب وهماً ثمنه باهظ. وفي حالة العداء هذه التي أحطنا وجودنا فيها، نجد أنفسنا عاجزين عن تربية أطفالنا بروح المحبة، أي أننا عاجزين عن تحقيق السعادة لهم. وإذ نقتل في الحروب الكبيرة والصغيرة، أعداداً كبيرة من الناس الأبرياء، فإننا نعجز عن اكتساب السكينة الروحية. كما تقتل المدن الكبرى مواطنينا وهم أحياء، إذ تجعل منهم مدمني مخدرات، ومدمني كحول، ولصوصاً. نحن نبشر بالخير بالقبضات، ونتناسى أن هذا مجرد هراء نخدع به أنفسنا. وفي هذا الخداع تجري حياة أجيال بكاملها. «فمن أجل كنوز الأرض، تهدم جبالها، ومن أجل درر البحار، نعكر صفوها، ومن أجل نزاع وثرثرة، نهلك أجسادنا». أما السلوك القويم، فإنه يقوم في أن «لا يكون الحكيم طماعاً: كلما أعطى الآخرين أكثر، نال هو أكثر، وكلما بذل للآخرين أكثر، اكتسب أكثر» (لاو - تسزي. «داو دي تسزي»، = كتاب الطريق والغبطة).

إذاً، فيم تقوم طريق الإنسان القويمة؟ إنها الطريق القانون، الداو. وقد دعاها كونفوشيوس بالطريق البدئية، البدء؛ بينما دعاها يان نسيون بالطريق المكنونة. وليس الداو وحيداً واحداً في الكون اللامتناهي وحسب، وإنما هو أوحد في نوعه كذلك. ويبدأ بالداو «امتداد» العالم، أي ارتقاؤه في الزمان والمكان. فحسب لاو - تسزي، إن الداو أحدث الحدود في الفراغ، لحظة بدء الزمان، ثمَّ أحدثت حدود الفراغ بدورها، الزمان والمكان. وأحدث هذان بعدئذ، الأثير البدئي (يوان تسي)، الذي انقسم فيما بعد إلى مبدأين كونيين اثنين (عنصرين)، هما: إين ويان. وأنجب هذان العنصران السماء، والأرض، والإنسان. ثمَّ أنجب هذا الثالوث حشد الأشياء، والكائنات، والظاهرات. وقد قال لاو - تسزي: «واحد أنجب اثنين، واثنان أنجبا ثلاثة، والثلاثة أنجبوا عشرة آلاف شيء». ويرى لاو - تسزي، أن وجود الداو «سابق على وجود الرب الأعلى»، إنه «يعيش منذ الأزل، ولا علّة لوجوده».

وفي كتاب «الإله، والروح، والخلود»: إن مبدأ كل شيء في الكون، هو الحقل الإعلامي البيولوجي، ففيه تكمن خطة بناء الكون وتطويره. وكان لاو - تسزي قد رأى أيضاً، إنه في البدء عندما لم يكن ثمَّة مكان ولا زمان بعد، كان هناك الداو اللامتناهي وحده. وقد كان ذلك فراغاً خاوياً من كل شكل. ونحن نستطيع أن نقول: إن الداو هو هذا الحقل الإعلامي عينه، الذي يخترق الكون كله، ويخلق الوجود كله من العدم.

وينقسم البناء الكوني في الفلسفة الداوسية إلى خمسة أطوار. في الطور الأول أطلقت الخطة التي كأنها كانت رابضة على تخوم العدم والأشكال. ويدعى الطور الأول: طور «الانقلاب العظيم»، لحظة الدافع الأول الذي تلاه طور «البداية العظمى». ففي تلك اللحظة ظهرت سحابة الأثير الكوني المتماثلة تمام التماثل (سحابة برانا تسي). وتتوافق تصورات لاو - تسزي هذه تمام التوافق مع تصورات فيزياء الكون المعاصرة عن ارتقاء الكون بعد الانفجار الأكبر. وقد جاء في «مذكرات عن أجيال الأرباب والملوك»، إن «البداية العظمى تبدأ عند أول ظهور التسي البدئي»، وفي «الكاوس (الخراب الكوني) المتماثل، الظاهر لتوه، تتحرك مع الداو آلاف مؤلفة من الأشياء والكائنات المندغمة في كل واحد».

وتجري في الأطوار الأخرى التالية، عملية تشكيل الكون. ولكن كل شيء يجري فيها وفق الخطة التي كانت قد أُرسيت في الحقل الإعلامي للداو. فيبدأ الكون يتجسم رويداً رويداً، خارجاً من الكاوس، فيكتسب أشكاله ومكانه، ووظائفه. ويتلقى الأثير الكوني في أثناء ذلك، توجهاً متبايناً. وفي هذا الطور ينشطر الموجب والسالب، والإيجابي والسلبي، والخير والشر. وقد كتب أحد الفلاسفة المعاصرين عن هذا يقول: «كما العمليات التي تجري في حوض مائي عكر، حيث يترسب ويتباعد شيئاً فشيئاً، الماء والطين المتخالطان في كتلة

متماثلة واحدة، كذلك عمليات نشوء الكون، ترفع إلى مجالات الكون العليا، كل نوراني ودقيق ونقي، وترسّب إلى تحت كل قاتم وثقيل وفظ وقذر. فتولد السماء والأرض، ومع ظهورهما ينشطر الأثير الكوني كله إلى اثنين، مكتسباً علاقة مختلفة: الإيجابي والسلبي، والنور والظلام، والمذكر والمؤنث، والليّن والصلب، وما إلى ذلك. ويجب ألا نظن أن هذا العدّ هو مجرد تقسيم ذهني، أو ثمرة إنشاءات فكرية تجريدية، أو رمزية جدلية. فليس «إين ويان» مجرد تناقض: تدفق الأثير النوراني والقاتم عبر قنوات الجسم الإنساني، ثمَّ تخالطا بمعايير مختلفة، فخلقا الرجل والمرأة. وفي مختلف فصول السنة، وفي لحظات شتى من حركة النظام الكوني الدائبة، ساد الأثير في الكون باتجاهات مختلفة». إن ظهور الكوسموس (النظام الكوني)، يعني «تشييء» الداو، تجسيمه. وعلى هذا النحو ظهر الحد الأعظم للكون، الذي ينبض في داخله نبضاً متواصلاً، متمدداً أحياناً، ومنكمشاً أحياناً أخرى، نوعان من الأثير: إين ويان. ولذلك لم يعد الداو خطة (إمكانية كامنة) بل تحول إلى واقع مجسّم. إن الداو هو القانون الكوني. وقد رأى لاو - تسزي إنه ليس ثمَّة مكان في الكون لا وجود فيه للداو. ونحن نزيد، إن هذا ممكن بفضل البناء المتماثل للكون. أما عن حقل الإعلام (الداو)، فقد كتب لاو - تسزي يقول: «وأنت تنظر إليه، لا تلحظه، وأنت تستمع إليه لا تسمعه، وتلمسه، فلا تحس به». ولذلك فإننا لا نرتاب في وجود الحقل الإعلامي، أي العقل الكوني. وعنه كتب صيماتصينا يقول: «يجري الينبوع العظيم للدرب من السماء، والسماء لا تتغير، وكذلك الدرب لا تتغير أيضاً». وعن هذا نفسه كتب أوغسطين المغتبط يقول: «أفي مكان أخر يجري الينبوع الذي منه يتدفق إلينا الوجود والحياة؟ كلا فأنت يا رب تصنعنا!».

ويقول لاو - تسزي: «إن الداو هو الذي بفضله يجري التوجه إلى الجذر، والعودة إلى البداية». وكتب الفيلسوف خان فييه - تسزي يقول: «يتفرّس الحكيم في فراغاته المكنونة، ويستخدم دورانه الدائري. فعندما يدور الداو مع العالم، فإنه يصنع حيوات طويلة الأمد، ويوآزر النجاحات المديدة». لقد ماثلوا الدوران بالشمس، التي عدها الداوسيون مركزاً كونياً يستشعر الداو، وينقل نبضه إلى العالم الأرضي. وتحت تأثير هذا النبض تحدث على الأرض التبدلات، وتظهر الفصول.

وحسب الداوسية: إن انشطار النور والظلام، و «إين ويان»، والموجب والسالب، كان أمراً ضرورياً لكي تتحقق الحركة («إين أحياناً، ويان أحياناً أخرى»). ثمَّ ظهرت بعد حين مسألة بلوغ الكمال. ولتحقيق الكمال، ظهر الإنسان في العالم. ولذلك فهو «يمتلك استشعار اللامرئي، واللامسموع، وما يقاس، وما لا يلمس».

فكيف يؤدّي الإنسان مهمته إذاً؟ وكيف يتلقى المعلومات من حقل الإعلام الداوي؟ لقد جاء في الكتاب القديم «غوان - تسزي»: «في السماء، الداو في الشمس، وفي الإنسان هو في القلب». وتساءل فيلسوف القرن 3ق.م، سيون - تسزي قائلاً: «على أي صورة يعي الناس الداو؟» ويجيب: «بمساعدة القلب!» ويقول سيون - تسزي في مكان آخر: «لا يمكن للقلب ألا يعرف الداو». ويتحدث العلم الحديث عن هذا عينه، لكنه يدقق مؤكداً على أن صلة الإنسان الإعلامية مع حقل الإعلام الكوني، أي مع العقل الكوني، تتحقق عبر اللاوعي، عبر لاوعي الإنسان. وحسب تعاليم الداو، إن قلب الإنسان يجمع بين الحركة والسكون، وبين الامتلاء بالإحساس والتطهر الذاتي منه حتى درجة الخلو التام. وللقلب قدرة على الشطر إلى مبدأين متناقضين. وللداو الخاصيات نفسها كذلك، وهو ثابت لا يتغير. ويثوي الداو في الفراغ محيطاً بالوجود كله. والداو واحد وحيد، لكنه يلد الكثرة. ففي قصة الزاهد تساوغو - تسزي، وصف لزيارة قام بها الساحران الخالدان، خان تشجون - لي، وليوي دون - بين للزاهد تساو. لقد سأل هذان الفيلسوف الداوسي عمّا يفعله في الجبال؟ فأجاب: «إن الغاية الوحيدة لإقامتي هنا، هي أن أنشئ الداو في ذاتي».

- فسأله الضيفان: «وأين يقع هذا الداو؟»
- «الداو هناك!»، وأشار تساو إلى السماء.
- «وأين السماء؟»، سأله ضيفاه مرة أخرى، فأشار تساو إلى قلبه من دون أن يجيب.
- فابتسم له تشجون - لي وقال: «القلب هو السماء، والسماء هي الداو. لقد نفذت إلى جوهر الأشياء».

ويستفاد من تعاليم الداوسيين، إن تواصل الإنسان مع الداو، لا يتم عبر قوة الإرادة أو الإدراك الفكري، بل على الضد من هذا، إذ يحدث الاستغراق في عمق الوجود الآخر في اللحظة نفسها التي ينعتق فيها المرء من رؤية العالم المادي، في اللحظة التي يتجاوز فيها قلق الأهواء، ويركّز على الوحيد. وهذا هو التأمل بعينه. إن تحقيق تبادل المعلومات مع الداو بالعقل، أمر مستحيل، لأن عملية التبادل هذه لا تنتمي إلى التجربة الحسية. وأي قسر للحالة الطبيعية، يعطي هنا نتائج عكسية.

وقد أسفر الاستشفاء الروحي عن إمكانيات لا متناهية في إبراء الناس. ووفق المعنى الحصري للكلمة، لم يكن اللجوء إلى التأمل إلزامياً هنا؛ إذ كان الأمر المهم، هو أن تذهل عن الهموم والمخاوف الصحية التي تضنيك، وتترك قاربك للأمواج. وهذا هو في حقيقة الأمر، جوهر التأمل. فأشكال التأمل شتى. ولكنه في الأحوال كلها طريق التنور الداخلي، وتواصل مع المبهم العظيم، الذي يقيم خارج إمكانات أجهزة الحس البشرية، أي خارج حدود العالم المادي. وغني عن البيان أن الداوسيين، بمن فيهم لاو - تسزي، مارسوا تمارين الاستغراق

الذهني. فالتأمل لا يحرر من العالم المادي وحسب، بل في أثنائه تستغرق في حقل الإعلام الكوني، الأشكال كلها، أي هولوغرامات الإنسان في أبعاد مغايرة. وفي القرن الخامس قبل الميلاد، وصف الحبر الداوسي لي - تسزي بداية تنسّكه ونهايته على الشكل الآتي:

ها قد مرت ثلاث سنوات منذ أن أقمت على خدمة معلمي وصديقي، وقد طردت فيها من قلبي التفكير بالحق والباطل، وحرّمت على شفتيّ التحدث بالنافع والضار. وحينئذٍ فقط حقت لي نظرة معلمي. وانصرمت خمس سنوات، فولدت في قلبي أفكار أخرى جديدة عن الحق والباطل، وبت أتحدث بطريقة جديدة عن النافع والضار. وحينئذٍ فقط، دعاني المعلم وأجلسني إلى جانبه على الحصير. ومرت تسع سنوات، فبتّ مهما أكرهت قلبي على التفكير، ومهما أكرهت شفتيّ على الحديث، لم أعد أرى ما هو حق بالنسبة لي وما هو باطل، ما هو نافع وما هو ضار؛ كما لم أرَ ما هو حق بالنسبة للآخر وما هو باطل، ما هو نافع له وما هو ضار؛ ولم أعد أرى أن المعلم هو مرشدي، وأن ذلك الشخص هو صديقي. لم أعد أفرق بين الداخلي والخارجي. وعندئذٍ بدا لي كأن أحاسيسي اندغمت في كل واحد: لقد تماثلت الرؤية مع السمع، والسمع مع الشم، والشم مع الطعم. تفكيري تراجع، وجسدي تحرر، واتحدت عظامي مع عضلاتي في كتلة واحدة. ففقدت الإحساس بما يتركز جسدي عليه، وما تطؤه قدماي، وتبعاً للريح أخذت أتحرك شرقاً وغرباً. ومثلي مثل ورقة شجر أو قشرة يابسة، وأخيراً لم أعد أعي ما إذا كانت الريح هي التي أسرجتني، أم أنا أسرجت الريح».

لقد كان الدواسيون على يقين بأن القلب البشري، كان قد أحس إحساساً مباشراً بحركة الداو، عند بزوغ فجر البشرية. فعندئذٍ أعلن الداو عن نفسه بصورة غير مباشرة، عبر رتل طويل من الأحداث، والظاهرات، والآيات. لقد كان ذلك العصر من الزمن الماضي، مثلاً أعلى للخير، والحكمة، والطبيعية. وقد قامت هذه الأخيرة في أن سلوك الإنسان سار وفق قانون الداو، بما يتوافق وقوانين الطبيعة، والعقل الكوني. وهذا ما لا يمكن قوله عن سلوك الإنسان في العصور التالية، فما بالك بعصرنا نحن. إن فلاسفة الصين القدماء تحدثوا عن «الزمن الذي كان الداو فيه في العالم». وقالوا عن الأزمنة الرديئة: «عندما حل زمن اندحار الداو (الدرب)». وليس المقصود هنا الداو نفسه بالتأكيد، إنما تأثيره في الإنسان. فالداو نفسه، أي الدرب نفسه بالمغزى الدقيق لهذا المفهوم، حاضر في كل مكان وفي كل زمان. إلا أننا لا نحسه دائماً. وكان فيلسوف معاصر قد قال في هذا الصدد: «لقد بات من النادر أكثر فأكثر أن يغسل الإنسان قلبه في تياره، وتبعاً لهذا يغدو الخير في العالم أقل فأقل، والطباع تغدو صلبة أكثر فأكثر».

وعلى هذه الصورة تعدّ تعاليم الداو، هي الحقيقة الأكثر باطنية، والتي لا يمكن إدراكها. ولكن الفلاسفة الداوسيين، وأوّلهم لاو - تسزي نفسه، يعالجون

المسائل العملية في جوهر الداو، وتحديداً مسألة: كيف يظهر الداو نفسه في العالم المرئي؟ وبكلمات أخرى، كيف يظهر المطلق نفسه في ظاهرات العالم المحيط بنا؟ وتجلّي الداو هذا يعني باللغة الصينية، دي. وعلى هذا النحو يكون الداو هو المعطى أولاً، والدي هو المعطى ثانياً. لكن الأول والثاني ينتميان معاً إلى درجات مختلفة في مستويات تجلي المطلق. وإذا ما سقنا مقارنة مع الفلسفة الإغريقية القديمة، فإن الداو هو اللوغوس، والدي هو الإيدوس[1]. وبديهيّ أن الدي كما الداو، ينتمي إلى العالم الروحي، لكن هذه الروحانية هبطت الآن إلى العالم المادي، إلى عالم الأشياء. وإذا ما عبّرنا بطريقة زمنية أكثر، فإننا نقول: إن الدي هو بدرجة معينة «شيء لنا». وكان شارحو تعاليم لاو - تسزي القدماء قد وضعوا هذا المغزى عينه في مفهوم الدي. ونحن يمكننا أن نقول تبعاً للمغزى الحقيقي لتعاليم لاو - تسزي، إن الدي هو معلومات الخطة الكامنة في حقل الأعلام الكوني، وطاقتها، إنه تمدد الكون، «الحركة الحتمية» للعالم، وفي الوقت نفسه، ليس حالة مادية، إلا أنه الكامن الذي يمنح إمكانية كل تجسيم مادي. وما يدل على أن الحديث يدور في الدي عن الكمون، أي عن الإمكانية الكامنة، هو كتابة كلمة دي في صورة هيروغليف. فالهيروغليف دي، يعكس هذا المفهوم في صورة ينمو فيها من عين المرسوم، فرخ نبات ما. ومعنى هذا أن الدي هو رمز النماء، والارتقاء، والانتقال من حالة كمون «الشيء لذاته»، إلى حالة «الشيء للعالم». وهذا هو رمز الخروج من الظلام إلى عالم المرئيات. ولو أتيحت الفرصة للهنود القدماء لقالوا: إن الكلام يجري عن عالم المايا، عالم الأوهام.

وليست فكرة النماء هذه من سمات المدارس الفلسفية الصينية القديمة وحدها. ففي واحد من أقدم الكتب الهندية، يدعى العالم الذي نعيش فيه: «الزرع العظيم». وكان المسيح قد كرر مراراً، مثاله عن الزرع والحصاد، قاصداً بذلك انتشار أفكاره وتعاليمه.

١- الصورة، المظهر الخارجي - المترجم.

وكما شاعت في الديانات الهندية القديمة، فكرة الروح الكوني، كذلك تحدثت التعاليم الفلسفية الدينية الصينية القديمة عن البذرة الروحية الكونية.

وإذا كانت روحانية الداو، هي البذرة، فإن الدي هو النبتة التي ستنمو عليها مع الوقت بذور جديدة. فالداو والدي هما بمثابة شحنة النماء المقبل وكمونه. وقد جاء في «كتاب التحولات» القديم: إن «أعظم دي السماء والأرض يدعى حياة». كما نرصد حضور هذه الفكرة في مقولات الداوسيين المتأخرة أيضاً.

ولكن التشابه بين التعاليم الصينية والداو والتعاليم الهندية، لا يقف عند هذا الحد. فنحن نقف عند الداوسيين على ما يشبه الكارما. ويتحدث هؤلاء عن إمكانية تراكم طاقة الدي. وفي غضون ذلك، ينتقل الإنسان إلى مستوى نوعي جديد. وقد كتبوا عن الفرق بين الدي والكارما، ما يلي: «إن نتائج الدي تظهر أساساً هنا، والآن، بينما ترتبط الكارما بنظرية النزوح الكوني، ولا تظهر نتائجها في هذه الحياة عادة، بل في ولادات لاحقة».

وها قد آن الأوان الآن لكي نتحول إلى المسألة الأهم، إلى المسألة الأكثر مبدئية في الديانات كلها، والنظم الفلسفية كلها، وهي: من أين يأتي المبدأ السلبي، وقوى الظلام في العالم الذي خلقه ويديره إله واحد أوحد؟ من الواضح أن الإله في الداوسية، هو الداو. ويستفاد من دراسة تعاليم الداوسيين، أن الداو يمكن أن يعلن عن نفسه في قوى النور كما في قوى الظلام التي تصدر عن أصل واحد، هو الواحد العظيم. وهي التسمية الأصحّ للإله. ويجب ألا يثير هذا استغراب أحد. فهذه التسمية حاضرة في التوراة والإنجيل. فلنتذكر معاً موعظة الجبل التي قال المسيح فيها: «...يُشْرِقُ شَمْسَهُ عَلَى الأَشْرَارِ وَالصَّالِحِينَ وَيُمْطِرُ عَلَى الأَبْرَارِ وَالظَّالِمِينَ»[1]. وحسب التوراة أنهم كانوا يقدّمون القرابين للإله الواحد، ولإله الشر (جدي الخلاص). وهذه الفكرة التي نرصد حضورها في التعاليم الفلسفية وديانات شتى القارات، هي فكرة عميقة جداً، وتتوافق مع بناء الكون: الموجب والسالب «يعملان» معاً، وفي الآن عينه، يكمّل أحدهما الآخر، وهما محرك تقدم البشرية، والكون كله.

ومن الواضح أنه من الصعب جداً قبول هذا كله، إذ يبدو كأنه تبرير للشر. ولذلك يبدو أن أكثر المؤلفين القدامى قد أدغم طاقة الدي كلها بقوى النور، بحركة الأثير المشرق، يان. ورأوا أن «الحياة هي ضياء الدي» (تشجوان - تسزي). وقال لاو - تسزي نفسه عن الداو: بأنه مصدر الخير للوجود كله.

وفي ترجمته الروسية حمل كتاب لاو - تسزي العنوان: «كتاب الطريق والغبطة». والطريق هي الداو. أما الغبطة، فهي الدي. والمطلق هو الذي يمنح الغبطة، والخير للعالم. وقد اعتقد القدماء أن بعض الأشخاص وخططهم، وقراهم،

١- العهد الجديد، إنجيل متى: 5: 45.

وحتى دولهم تنال طاقة الدي الروحية الخيّرة. ويخلق وجود الدي داخل الإنسان شتى الميزات الأخلاقية. ولذلك يمكن القول: إن الدي هو الفضيلة.

ولكن معاكسة الخير والشر، هي حسب تعاليم لاو - تسزي، أمر ليس له مغزى؛ لأن كلاً من هذين المفهومين ينطوي على نقيضه، أي أن الخير يحمل في داخله جنين الشر، والعكس صحيح. وقد جاء في الإنجيل: «لا يمكن فصل الخير عن الشر، كما لا يمكن فصل الليل عن النهار». فالعالم يتكون من الإيجابي والسلبي، ولكن وجود الإيجابي من غير السلبي، أمر غير ممكن. وفي مخطط «التقسيم العظيم»، أي عالمنا الذي نعيش فيه، يحتوي العنصر المشرق يان عند حدّه الأكمل على جزيئة من العنصر المظلم إين؛ ويحتوي هذا الأخير لحظة نضوجه الأقصى على نواة يان. فالأشياء تبلغ حدها ثمَّ تنقلب إلى ضدها. وإذا ما بات الجمال بمتناول الكل، فإنه يفقد جاذبيته، ويبدو مبتذلاً، والخير الذي يقر جميعهم به، ويرفع إلى منصة الشرف، يولّد شراً مقابلاً.

وتترتب على هذا نتائج عملية بعيدة المدى. فلا تحاول أن تثبّت الخير على منصة الشرف، ولا تسعى من فورك إلى جعل الناس سعداء كلهم، لأن «خيوط السعادة والمآسي داخل الكبّة، متداخل بعضها مع بعض، وليس الفصل بينها ممكناً». إن استئصال الشر مستحيل، لأنه يشق طريقه دوماً في إهاب آخر، عبر عملية إنشاء الخير. ونحن لا نرى ضرورة لسوق أي مثل لهذا، لأن نظرية البشرية كلها تمثل هذا المثل. فتعاليم المسيح رائعة، ولكن عندما رفعها آباء الكنيسة إلى منصة الشرف، كم من الآلام عانى الناس، وكم من الدماء سال. فباسم المسيح خدعوا، وقتلوا، ونهبوا، وابتزوا المؤمنين إيماناً صادقاً. وهذا ما حصل للتعاليم الأخرى كذلك. وقد قال لاو - تسزي: «كيفما يكون النداء، يكون الصدى». فبقدر ما يكون نداء الخير قوياً، بقدر ما تزداد ضراوة الشر. ولذلك لا تقسم العالم إلى خير وشر، إلى صالح وطالح، لأن فرض الأحكام على الآخرين أمر محفوف بالمخاطر. «لاَ تَدِينُوا لِكَيْ لا تُدَانُوا»[1]. وهذا ما قاله لاو - تسزي أيضاً، ولكن بكلمات أخرى. فقد رأى أن الإنسان الحكيم يجب ألا يشارك في مثل هذا اللهو: تعظيم

١- العهد الجديد، إنجيل متى: 7: 1.

أحدهم وتحقير آخر. لأنه لهو خطر من حيث جوهره. وحياة الحكيم كامنة في داخله هو. فهو يعلّم بصمت، «من القلب إلى القلب». وقد كان يسوع المسيح حكيماً من هذا الطراز. فلم يدع إلى حرب ضد الشر، إنما بطريقة عيشه، بوجوده نفسه جعل العالم أكثر إشراقاً، وأكثر طيبة. ليس الحكيم هو المستغرق في تفكيره متبطلاً لا يفعل شيئاً. فالفكر يتصف بالمادية. ولذلك فإن الحكيم الماكث خارج الفعل، يصنع الخير. لكنه يصنعه بطريقة أكثر فاعلية من أولئك الذين يحاولون أن يغيروا العالم علانية، ويجعلوا الناس سعداء بالقسر. «فمن القلب إلى القلب» تواصل بوذا مع تلاميذه. ولحظة تحوّل بوذا إلى النيرفانا فهمه تلميذه كاسيانا من غير كلام، وقبّل الزهرة وابتسم. ويفترضون أن تعاليم بوذية جديدة قد ولدت في تلك اللحظة، هي تعاليم إيزين (تشان).

لقد تحدثنا قبل قليل عن صلة الإنسان بالحقل الإعلامي، الداو. وبقدر ما تكون أخلاق الشخص المعني سامية، بقدر ما تكون هذه الصلة أفضل. لأن الرؤية الداخلية عند مثل هذا الشخص، ليست معكّرة بآثام الرغبات والأهواء. وقلبه صاف كمرآة المياه التي لا تحركها الريح. ولذلك فإن هذه المرآة تعكس كل شيء بدقة وصدق من دون تحريف. إن لمثل هذا الإنسان الساميّ الأخلاق قدرة على أن يمتلك ما لا يستطيع أحد امتلاكه، وأن يدرك ما لا يُدرك. فليس بينه وبين حقل الإعلام الكوني، الداو، حجاب. إنه قادر على أن ينزل سلم الزمن إلى العالم البدئي حينما لم يكن قد نطق بالاسم الأزلي بعد. والاسم الأزلي، هو اسم الطريق الأبدي، اسم الإله. إننا نتحدث دوماً عن المعلومات، ومن الضروري جداً لنقل هذه الأخيرة، امتلاك كلمة مفتاحية، اسماً. ومن المعروف أن أسماء الآلهة في الديانات كلها، كانت أسماء سرّية مكنونة. فالمسيحيون يصلّون قائلين: «ليتقدس اسمك». ويقول الصوفيون: إن الإنسان إذا عرف الاسم، يحظى بالسلطان حتى في المجال الخارق. أما الداو فإنه يتلقى اسماً عندما يتحول من الحالة البدئية الأولى، حالة العدم والخراب، إلى حالة الكوسموس (النظام الكوني). وابتداء من تلك اللحظة ينتقل إلى «التقسيم العظيم». ومنذ تلك اللحظة يغدو اسم الداو راسخاً رسوخاً أبدياً. وقد قال لاو - تسزي: «الذي لم يكن له اسم، غدا مبدأ السموات والأرض، وباكتسابه اسماً صار أمّ الأشياء كلها». ثمَّ يقول: «الرصين أبداً يبصر الحريز الصعب المنال». أما «عبد الأهواء، فلا يرى سوى المحدود المتناهي». ومعنى هذا أن ما يتلقاه هذا الأخير من حقل الإعلام الكوني من معرفة، محدود جداً. فلا تمتد في مرآة قلبه الكدرة سوى خطوط المكنون الممهوكة. أما معارفه فتقصر على ما هو موجود في الواقع،

الذي أخرجه الاسم إلى الحياة، أي على أشياء العالم المحيط وظاهراته. إن المعرفة السامية لا تمنح لأي كان، ولا تدرك إلا بالولوج إلى عمق سر من الأسرار. فقد قال المعلق على تعاليم لاو - تسزي (في القرن 3ق.م)، «شيخ من ضفاف النهر الأصفر»: «إن عبارة سر من الأسرار، تعني أنه ثمَّة سماء في السماء. ولا تعطى المعرفة الحقيقية إلا بالنفاذ إلى خارج المجالات القصوى. فالكلمات ليست مؤهلة لنقل التجربة اللاشعورية. أما هذه الأخيرة نفسها، فهي الوسيلة الوحيدة لمقاربة جوهر الأشياء. وليست الكلمات والمفاهيم مؤهلة لنقل المعرفة، لأن هذه الأخيرة خارج ما هو عقلي. ولا يمكن للإنسان أن يأمل بأن يعي ما هو موجود، وما هو غير موجود، إلا إذا نفذ إلى السماء الثانية، إلى المجالات الخفية».

إن بلوغ مثل هذا السر من الأسرار، يقتضي بذل جهد معين. وقد قيل عن هذا: «لقد مات بريقك، فاختلط مع الرماد». وهي دعوة لتدمير الذات والخضوع. إن الداو كالماء، يسعى لكي يشغل أدنى مكان في هذا العالم. ولكي يندغم الإنسان بالداو، عليه أن يحذو حذوه. وكان المسيح قد دعا إلى الوداعة أيضاً، إذ قال: «من يريد منكم أن يرتفع عليه أن يصير خادماً لكم».

ويحدث الاستغراق في أمداء الداو «عندما تتبدل حالة الوعي»، وهذا ما كتب في كتاب «الإله، والروح، والخلود». والحديث يجري هنا عن حالة التأمل وسواها من الحالات النفسية «المختارة» الأخرى. ففي مثل هذه الحالة، يحدث الدخول إلى المجال الواقع خارج المجال الأقصى. وترفع هذه الحالة كل التناقضات التي يتميز الواقع بها. وفي غضون ذلك يتحول الإنسان إلى مقام أسمى وبكيفية مغايرة. ولا بأس بالقول، إنه ينقلب إلى مستويات أعلى لذلك الإشعاع السّمعي الدقيق، الذي يراه الجوّابون الخارقون، بمن فيهم الداوسيون الصينيون، واليوغيون الهنود. وكان تشون يان (عصر مين)، شارح تعاليم لاو - تسزي، قد وصف الاستغراق في التأمل الذهني، الذي بات كتاب لاو - تسزي رائده.

«لقد فلت نصال المسواة من تلقاء نفسها، فبتّ لا أشعر بالمسواة، ولا أحس فكرة اندثارها. ولا يمكن للسياط من الخارج أن تنفذ إلى الداخل، وبما أنها لا تنفذ، فلا حاجة لجدْلها أصلاً، لقد اندثرت تلقائياً، ولا تخرج إلى الخارج، بل تبقى صامتة. وفي اللحظة التي استغرق في سكوني، تغدو هذه الأعباء عاجزة عن إسخاط روحي، أو إقلاق نفسي، أو تمزيق قلبي، أو تشتيت سيي، أو تبذير بذوري. وما أن يتوقف الإسخاط، والإقلاق، والتمزيق، والتشتيت، والتبذير، حتى ينبلج نور طبيعتي. وعندما ولد النور في داخل سكينتي، عندها فقط تمكنت من أن أدرك ما وراء حدوده، وأتنوّر بقوانينه المكنونة، وأنفذ إلى عمق لجّته، وأفيد من وعائه. فعندما تغوص إلى قاع الماعون، يمكنك أن تدعو ذلك أنه تحقيق الانسجام. وعندما يصل المرء إلى تلك الدرجة من تدريب جسده، بحيث يغدو هذا ساكناً كالأرض لا يتزحزح، حينئذٍ فقط يمكن القول، إنه جمع حبيبات غباره». ثمَّ يصف

تشون يان بعد ذلك، عملية الاستغراق على مستويات جديدة. ويقول: إنه في أثناء ذلك تولد في الظلمة نماذج مشرقة بالكاد يمكن تمييزها، ويظهر إحساس مشوش بتيار الداو، وتنشأ رؤية الوليد الذي لا يرى. إن ما يحصل إذاً، هو تجسيم مادي لكلمات لاو - تسزي حيث قال: «أنا لا أعرف ابن من هو». ثمَّ يختفي شعور «الأنا». وأخيراً يحصل الذوبان التام في الداو.

لقد رأى الداوسيون أن الرحمة وحدها القادرة على قطع سلسلة الشر اللامتناهية. ولا يمكن لأي شيء آخر أن يفعل هذا. ونحن كنا قد أشرنا أن كونفوشيوس قد رأى أن الرحمة أسمى صفات الرجل النبيل. وقال: إن الرحمة هي «محبة الآخرين». إنها الاجتهاد في أن «لا تصنع للآخرين ما لا تريده لنفسك».

ويعالج الداوسيون في دراساتهم، رحمة السماء والأرض. ولو كنا مكانهم لقلنا، رحمة القوانين الطبيعية التي تتحكم بالعالم المحيط بنا. فعند الصينيين، أن السماء هي الإله، وهي قلب كذلك. كما عدّوا الأرض حية، إنها شرايين الدماء. ومنحوا السماء والأرض إدراكاً وإرادة. ولكن رحمة الأرض والسماء (الإله)، رحمة فريدة. «هما تعلوان فوق كل ما هو موجود، وتسكبان نعمتهما بالتساوي لا على الإنسان وحده، مع أنه الأغل، إنما على الوجود كله، على العظيم والضئيل، لصاقاً حتى الشجر والعشب، والزواحف، والحشرات. كأنهما على الجانب الآخر للخير والشر، ولكن «كأنهما» وحسب، لأن الداو إلى جانب الصالحين دوماً. ففي بعض الأحيان تبدو رحمتهما السامية لا إنسانية، بيد أن هذا مجرد ظاهر فقط. وهكذا ينبغي على الإنسان أن يكون، فإذا ما أدرك أسمى درجات الكمال الروحي، يغدو رصيناً، بعيداً عن الأهواء، ويفسح للعدالة العليا أن تتحقق».

ويجب على الإنسان أن يحاول أن يسلك مثل هذا السلوك كذلك. فالمسيح لم يرفض أحداً، وحاول أن يساعد كل من أتى إليه. وقال: لا يأتي الطبيب إلى المعافى، بل إلى المريض. وداوى أرواح الناس. ودعا الداوسيون بدورهم الإنسان إلى الإقتداء بالسماء والأرض في منح رحمتهما، أي دعوه لكي يصير خالداً. ولكنهم يختلفون مع المسيح هنا اختلافاً مبدئياً. فهم يرون أنه ينبغي على المرء أن يكون رصيناً، بعيداً عن الأهواء في علاقاته مع الأقارب (الصالحين منهم والأشرار). فلا يجب عليه أن يرحم، بل أن يترك الفرصة للإله الأعلى كي يتجلى، كي يظهر الرحمة العليا. وقد كتب تشون يان عن هذا ما يلي: «السماء

والأرض عاليتان علواً متناهياً، ومتسعتان اتساعاً متناهياً... وتتوزع بركتهما وعطفهما على الوجود كله، ويظهر هذا في أنهما تلدان، وتربّيان، وتكبّران إلى حد الكمال، آلافاً مؤلفة من مخلوقاتهما، وفي هذا تقوم رحمتهما. إن السماء والأرض تحتويان الوجود كله، وكل ما هو موجود يحس بركتهما. وبما أن هذه لا أشكال لها ولا آثار، فإنها تنتمي إلى الغبطة العليا، التي لا تبارك الرحمة العليا، التي ليست رحيمة. وهذه هي بالضبط الرحمة المتناهية. فبفضل «لا رحمتهما»، بقيت السماء والأرض موجودتين هذا الأمد الطويل كله... إن المرء الكامل الحكمة، الذي يعمل على تحسين كماله، محاكياً السماء «اللارحيمة»، لا يفعل شيئاً سوى أنه يغيّر نفسه وحده، ولكن عندما يتحدثون عن «مئة عشيرة»، فإن هذا ليس سوى جسد واحد، إنه هو عينه، وليس الآخرون. إنه قلب البلاد، فكر الملك، قلب الشعب. فبتبطّله يحوّل الجسد، وبتبطّله يحافظ على القانون. وهذه هي الرحمة بعينها، ففي السكون والاحتجاج، وعدم إظهار الرأفة، يحذو الكامل الحكمة حذو الرحمة العليا للسماء والأرض، هذه الرحمة التي «لا ترأف»، وهكذا يسعى لكمال نفسه».

وتعد مسألة الرحمة مسألة مبدئية في تبيان الاختلافات بين ديانات الشرق وديانات الغرب، ولذلك نرى أنه من الضروري أن نعالجها بالتفصيل. يقول تشون يان: «كيف يمكن للمرء الساعي إلى كمال نفسه ألا يحاكي الأرض والسماء؟ فمن يطور نفسه مستعيناً بالفراغ، يكتسب جمال الفراغ وغموضه: ليست به حاجة لأن يطمع بالمجد، أو بالطريق. فما أن يبلغ الخواء حده حتى تحدث حركة ما. وعندما تبدأ هذه الحركة طريق الجمال، يبدأ إحساسك بمكنون ما يجري يتزايد. وهذا ما لا يمكن التعبير عنه! ولذلك فإن روعة أن تدرك ذاتك، ومكنون اللقاء مع ذاتك، وسرّ التركيز في داخل ذاتك إلى درجة النسيان الكلي، وعزل ذاتك في أقصى وسط الطريق الأقصى، وبراناك الواحدة الحقيقية الأزلية، هذه كلها التي بفضلها تسعد بحقيقة السماء، لهي أفضل من الخسائر التي لا حصر لها. أو ليست هذه هي تلك اللاإنسانية نفسها، التي يغدو فيها الحكيم الكامل الساعي إلى تحسين كماله، شبيهاً بالسماء والأرض، أو ليس هذا هو قانون الفراغ الخفي المكنون؟ إن رحمة السماء والأرض تكمن في لا رحمتهما. كم هو مكنون هذا السر في عظمته اللامتناهية، كم هو مكنون رسوخه اللامحدود».

وعن هذا نفسه يقول شيخ ضفاف النهر الأصفر (القرن 3ق.م): «كثيرة هي الهموم التي تؤذي الروح، وكثير هو الكلام الذي يؤذي الجسد. فعندما تنفرج الشفتان، وينطلق اللسان على هواه، فإن البلية والرزية واقعتان لا محالة، أليس من الأفضل أن تستغرق في التركيز على الفضيلة الداخلية، وتهتم بإنبات بذرة الروح، وتعشق البرانا - تسي وتقلل من الكلام؟».

إن هذا، كما نرى، يميز أيضاً الفلسفة الشرقية عن الفلسفة الغربية، وديانات الشرق عن ديانات الغرب. فالمسيحية والإسلام يهتمان بالمجتمع كله، بأفراد

الطائفة كلهم من دون استثناء. فالشاة الضالة بالنسبة إليهما، أغلى من تلك التي تسير على الطريق الصحيح. ويستحق الابن الضال من والده استقبالاً حافلاً: لقد عاد أخيراً إلى طريق الحق. فللإنسان في هاتين الديانتين أهميته، لأنه جزء من المجتمع، من الطائفة، من الجماعة. ولا يجوز أن يترك جائعاً، وعارياً، وبلا رجاء. وقد قال المسيح: إن قبوله، قبول تعاليمه، يعني إطعام الجائع، وإكساء العاري، ومواساة المريض، و.. وفي هذا يقوم جوهر تعاليمه. وإذا أرادت المسيحية المعاصرة أن يكون لها مستقبل، فإنه ينبغي عليها أن تدرك هذا، لا أن تهتم بمواردها المالية فقط. ولكن كيف تتعامل الديانات الشرقية مع هذه المشكلة؟ لقد أجبنا عن هذا السؤال قبل قليل. ولكننا نكرر مرة أخرى: إن المرء الكامل الحكمة الساعي إلى كمال نفسه، لا يغيّر سوى نفسه وحدها وحسب. أليس الأفضل أن يركز المرء على الغبطة الداخلية، ويهتم بإنبات البذرة الروحية، وتنقية نفسه؟ ونحن نجيب: لا، ليس هذا هو الأفضل»، لأن المجتمع كله، والبشرية كلها كائن حي واحد، وجزء من الكائن الحي الذي يملأ الأرض. فالمجتمع ليس مجرد كمّ من المواطنين، أو من أفراد كل منهم قائم بذاته، مستقل عن الآخرين، إنه كائن حي لا يمكن للإصبع، أو الساق، أو أي عضو آخر أن يعيش فيه، ويتصرف على هواه. إن الإنسان يولد فرداً له مواهبه، وقدراته، ومؤهلاته، وميوله، ومساعيه، بيد أنه يعد في هذا كلّه جزءاً من نظام، أي من مجتمع، ولذلك فهو ملزم بأن يعمل لخير المجتمع. فالشخصية لا وجود لها خارج المجتمع. والشخصية الحقة تظهر بصفتها شخصية حسب موقفها من الآخرين، من المجتمع كله، فقد سار المسيح إلى الصليب من أجل المجتمع، من أجل الناس. يقيناً إنه كان كامل الحكمة، ولكن لا يمكن أن نتخيله وقد قصر اهتمامه على ذاته، وإنبات البذرة الروحية والروح. فلما إنبات الروح وتربيتها إذا كانت لن تسخر لخلاص القريب، ورفع شأن المجتمع كله؟ وما الفائدة من أن تقضي حياتك كلها متأملاً على قمم الجبال وفي الكهوف، إذا كنت لن تقدم شيئاً للآخرين؟

وعليه، يغدو من الواضح لماذا أخذت الديانات والتعاليم الشرقية تلقى مزيداً من الانتشار في الغرب. فالمجتمع الغربي يتشظى إلى كثرة من الأفراد الذين تضنيهم الوحدة في تلك الأدغال الحجرية. فالكائن الحي يصاب بالسقم، ولا يمكن لبعض خلاياه منفردة، أن تكون سعيدة. ولذلك نراها تبحث عن خلاصها في فردانية الشرق، في الانفصال عن الواقع، في النسيان.

إن ما قلناه هنا لا يمثل رفضاً لديانات الشرق، فالحديث يدور عن محور ارتكازها، الذي يميزها عن ديانات الغرب. بيد أن هذا لا يعني أن أخلاقياتها تختلف في شيء عن أخلاقيات المسيحية أو الإسلام. ففي مقدمته التي كتبها لترجمة كتاب لاو - تسزي إلى اللغة الروسية في العام 1913م، قال ليف

تولستوي: «إن أسّ تعاليم لاو - تسزي، هو نفسه واحد، كأس التعاليم الدينية الحقة العظمى الأخرى كلها. وهو الآتي: يعي المرء نفسه أولاً بصفته شخصية جسمية، منفصلة عن كل ما عداها، وتريد الخير لها وحدها فقط. ولكن قبل أن يعد المرء نفسه بيتر، أو إيفان، أو ماريا، أو كاترين، فإنه يعي ذاته كذلك بصفته روحاً من غير جسد، مثله مثل الروح الذي يعيش في كل كائن، ويمنح الحياة والخيرات للعالم كله. ويمكن للإنسان أن يحيا إما بشخصيته الجسمية المنفصلة عن العالم، والتي لا تريد الخير إلا لذاتها، أو بروحه اللا جسدي الذي يعيش فيه، ويتمنى الخير للعالم كله. إن الإنسان قادر على أن يعيش لجسده أو لروحه. فعش أيها الإنسان لجسدك، والعيش للجسد بلية، لأن الجسد يعاني، ويسقم، ويموت. وعش أيها الإنسان لروحك، والعيش للروح خير، لأن الروح لا تعاني، ولا تسقم، ولا تموت.

ولذلك كي لا تكون حياة الإنسان بلية، بل خيراً، فإنه يجب عليه أن يتعلم العيش لا لجسده، إنما لروحه. وهذا ما يعلّم به لاو - تسزي. إنه يعلّم الانتقال من حياة الجسد إلى حياة الروح. وهو يدعو تعاليمه طريقاً، سبيلاً، لأن تعاليمه كلها ترشد إلى هذا المعبد؛ ومن هنا حملت تعاليمه كلها اسم: «كتاب الطريق والغبطة». وتقوم هذه الطريق حسب تعاليم لاو - تسزي، في ألا تفعل شيئاً مما يريده الجسد، أو افعل الحد الأدنى منه، كي لا تخمد ما تريده الروح، ولا تعيق عمل العمال الجسدية، وتمنع إمكانية أن تظهر في روح الإنسان قوة السماء (هكذا يدعو لاو - تسزي الإله)، التي تعيش في كل شيء.

وإذا كان مترجم النص قد نقل هذه الفكرة بدقة، فإن ما يثير الاهتمام، هو أنها غالباً ما تنعكس بصورة غريبة مقصودة، ولكنها تمثل في الأحوال كلها أسّ التعاليم كلها.

وهذه الفكرة لا تشبه وحسب، وإنما هي عينها الفكرة التي وردت في رسالة يوحنا الثانية وتقوم في صلب تعاليم المسيحية. فحسب لاو - تسزي أن الداو هو الطريق الوحيدة التي يتحد الإنسان بوساطتها مع الإله. أما الداو فلا يتحقق إلا بالإحجام عن كل ما لا لزوم له، عن ما هو جسدي. وهذا ما عكسته التعاليم التي جاءت في رسالة يوحنا الأولى. فحسب تعاليم يوحنا، أن المحبة هي وسيلة الاتحاد مع الإله. والمحبة كالداو، لا تتحقق إلا بالإحجام عن كل ما هو جسدي وذاتي. وكما إن المقصود بكلمة داو، وفق تعالم لاو - تسزي، هي طريق الاتحاد مع السماء، والسماء نفسها، كذلك فإن المقصود بكلمة محبة في تعاليم يوحنا، هي المحبة نفسها والإله بذاته (الإله محبة). ويقوم جوهر هذه التعاليم وتلك في أن الإنسان قادر على أن يعي نفسه منفرداً ومتحداً، عابراً وأبدياً، جسداً وروحاً، حيواناً وإلهاً. وحسب لاو - تسزي، إنه ثمَّة طريق واحدة يحددها بكلمة داو، تنطوي في ذاتها على مفهوم الغبطة السامية. ويدرك هذا بالتحلي بصفة يعرفها

الناس كلهم. إذاً، جوهر تعاليم لاو - تسزي، هو عينه الإحجام عن كل ما هو جسدي، وعبر العنصر الروحي الإلهي الذي يشكل أس حياة الإنسان».

ومن الواضح أن تولستوي لم ينطلق في مقارنته بين الداوسية والمسيحية إلا من المعايير الأخلاقية، من غير أن ينخرط في تحليل الأسس الفلسفية لتعاليم الداوسيين، وفيما يتعلق بالأخلاق، فإنها كالأخلاق النابعة من الديانات العالمية الأخرى، لا تناقض من حيث المبدأ، الأخلاق المسيحية.

وهكذا رأى لاو - تسزي، إن الإنسان الحكيم يجب أن يتعامل كما تتعامل السماء والأرض، اللتان تنبتان مليارات من الكائنات وتمنحانها القوة والعناية. وعلى الإنسان أن يفعل الشيء عينه إذا كان يريد الخير لنفسه. فثمَّة في الكون قانون، هو قانون ثواب الأعمال الصالحة، التي يعملها الإنسان بتفان.

ويقول لاو - تسزي: «إن نهم الرغبات يهلك الروح، ووفرة الثروات تضني الجسد». وجاء في الإنجيل: «لاَ تَكْنِزُوا لَكُمْ كُنُوزاً عَلَى الأَرْضِ حَيْثُ يُفْسِدُ السُّوسُ وَالصَّدَأُ وَحَيْثُ يَنْقُبُ السَّارِقُونَ وَيَسْرِقُونَ»[1]، و «..إِنَّهُ يَعْسُرُ أَنْ يَدْخُلَ غَنِيٌّ إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ»[2]. وقد علم لاو - تسزي ضرورة أن يعرف المرء القسط، فقال: «عارف القسط غني!» وعن هذا قال شارح أعمال لاو - تسزي: «في السمت يبدأ ميل الشمس نحو الغروب، وإذ يكتمل القمر يبدأ يتناقض، وبالازدهار يستبدل الذبول، وبالسعادة الأسى». وبكلمات أخرى، إن كل ما في العالم يتحول مع الوقت إلى نقضيه.

وتشير تعاليم لاو - تسزي بوضوح إلى الكيفية السليمة لتعامل الإنسان مع جسده، وقد عبر تشجين عن هذا بقوله: «يجب على الإنسان أن يحرص على جسده، لا أن يحبه... فعندما يرفعون الصلوات للداو، فإنهم يضاعفون أعمال الخير، ويصنعون الفضائل، ويزرعون البذرة الروحية، وينبتون الروح، والروح يصنع الخلود السحري، وبذا يغنون النفس. ولكن أولئك الذين يتعطشون إلى الجد والإجلال، ويثقلون بذرتهم الروحية وفكرهم لكي يكسبوا الثروات، ويحشون أجسادهم بالطيبات، وهذا لعمري جوهر حب الجسد، هؤلاء لا يجمع بينهم وبين الداو شيء».

١- العهد الجديد، إنجيل متى: 6: 19.

٢- العهد الجديد، إنجيل متى: 19: 23.

ويثير الاهتمام رأي الداوسيين بالمصير. وعن هذا يقول فان تشون (العام 100م): «إذا كان الفقر مكتوباً لجنسك، وأنت اغتنيت بسعيك وكدك، فإنك بعد أن تغتني تموت. وإذا كانت الضعة مكتوبة لجنسك، وأنت نجحت بمواهبك ومؤهلاتك أن تبلغ الوجاهة، فإنك أنت الذي حققت الوجاهة، سوف تُخصى. فالقسمة والمصير ليسا بقادرين على احتواء الثروة والوجاهة، اللتين اكتسبتا بالقدرات والمواهب، والحفاظ عليهما، فهما كالماعون الذي له سعة محدودة».

وفيما يخص الأخلاق البشرية، فقد كانت هذه دوماً في الأزمنة كلها، على أدنى مستوى. وهذا ما نقرأ عنه في التوراة والقرآن والمصادر الهندية. وهناك أيضاً يجري الحديث عن العصر الذهبي للبشرية، حينما كان كل شيء مختلفاً، حينما كان كل شيء على انسجام مع القوانين الإلهية، مع قوانين الطبيعة، وحسب التوراة أن هذا كان في الجنة قبل أن يخالف آدم وحواء وصية الرب، ويأكلا من ثمار شجرة معرفة الخير والشر. كما تشير المصادر الصينية القديمة بدورها، إلى عصر الانسجام هذا: «في أزمنة الداو العظيم، كان الأطفال مبجلين في الأسر، وكان يمكن أن ترصد في البلاد حضور الصدق، والإخلاص، والأمانة، والرحمة، والرأفة، والعدل، والواجب في كل مكان. ولكن حينما دخل الداو العظيم دور التقهقر، وخرج من حيز الاستخدام، وتكالب الشر على الحياة، عندئذٍ ظهرت الرحمة، والعدل، والواجب لكي ينقلوا الداو من جيل إلى آخر، وظهر الإجلال البنوي، وعناية الوالدين، من أجل أن يرعى الطرفان أحدهما الآخر، وظهرت الرعية المخلصة»... وبعد ذلك سُلب الإنسان الحقيقة المطلقة، وليست الأخلاق البشرية مؤهلة لتأخذ مكانها. وقد كتب «الشيخ» يقول: «إن الداو وحده القادر على منح المعايير الأخلاقية الحقيقية. ففي حضور الداو، يتلاشى الإجلال البنوي، ومثله عناية الوالدين، وتختفي الرحمة، والعدل، والواجب كما يختفي ضوء النجوم وضوء القمر عندما يظهر نور الشمس». وبتعبير أدق، أن هذه لا تختفي، إنما تكتسب مغزاها الحقيقي العميق، فالأخلاق البشرية، هي في واقع الحال نتيجة لفساد سلوك البشر، وبديل عن الأحاسيس الطبيعية، والتواصل مع الحقيقة. وقد دعا لاو - تسزي إلى التخلص من الحكمة المختلفة الباطلة، والمعرفة السطحية البائسة، لأنهما عاجزتان عن منح الإنسان السعادة. ويقول فيلسوف معاصر، إن لاو - تسزي يدعو إلى «الامتناع عن الساطع الذي يلفت النظر، لكنه سطحي طارئ وغير ذي جوهر، والالتفات إلى الجوهر الأبدي والطبيعية المجردة غير المزركشة. ولم يطرح لاو - تسزي سوى ثلاثة مطالب، لكنها مطالب نفيسة أكثر من كثرة منها: التخلص من الحكمة البشرية كلها، ورمي الأخلاق المبتذلة، والعزوف

عن كل حيل الطمع، أي تدمير كل دافع بشري يحرّض على الفاعلية. لقد تلمس لاو - تسزي بدقة، دوافع التقدم الإنساني الثلاثة الفاعلة في أبعاد وجود الإنسان الثلاثة: التعطش لتحقيق البحبوحة المادية، وهو الذي ينشط عملية الإنتاج، ثمَّ التراكم وتطوير التقنيات، والتعطش للمعرفة الذي يفضي إلى ظهور العلوم، ثمَّ في آخر المطاف، إلى التوسع الكوني للجنس البشري، وأخيراً المقولات الأخلاقية، المقولات الأيديولوجية التي تُدرج هناك، حيث لسبب ما، فقدت النفعية البشرية أو حب المعرفة فاعليتهما».

وتدفعنا دعوة لاو - تسزي للعزوف عن المعرفة المبتذلة، إلى أن نتذكر كلمات التوراة: «من تزداد معرفته تزداد أحزانه». إن المعرفة الحقة لا تزرع في الإنسان سوى الالتفات إلى علّة الكون البدئية، أي إلى الداو.

«إن الداو يخلق الحياة ثواباً على فعل الخير، ويخلق الموت لكي يخيف الشر. فالموت هو ما يخافه الإنسان! ولكن الحكام والرجال الأبرار، وكذلك ناس البهرجة الباطلة، سيان بالنسبة لهم خوف الموت وفرح الحياة، ومع ذلك يسلكون سلوكاً متبايناً. فالساعي وراء البهرجة الباطلة يخاف أن يموت، ولكنه لا يستطيع أن يؤمن بالداو، بل يميل إلى الأعمال الحمقاء: كيف يمكنه أن ينجو من الموت؟ أما الرجل البار، فإنه يؤمن بالداو خوفاً من الموت، ويلتزم بالتعاليم لأنه متوائم مع الحياة» (تشنجان). ومن المفيد أن نؤكد أن الإيمان بالداو والتواصل معه، والسعي إلى عمل الخير، يمكن أن تمنح الإنسان الحياة الأبدية. وهذا ما تقول به التوراة أيضاً.

فالصلاح هو الشرط الضروري لكي تثمر بذرة الحق. وعن هذا كتب تشنجان يقول: «لنشبّه البذرة بالماء في السد الصغير، ونشبّه الجسم الذي يحبس الماء بالسد، وأعمال الخير بالينبوع. وإذا ما اجتمع ثلاثتهم، فإن السد راسخ قوي وممتلئ بالماء. ولكن إذا لم يكن القلب نازعاً إلى الخير، فعندئذٍ لن يكون هناك سد يحبس الماء، فيترك هذا المكان ويمضي في سبيله. وإذا لم تتراكم أعمال الخير، فإن النفايات تتجمع في المكان ويجف الماء».

ويتألف «كتاب الطريق والغبطة» من خمسة آلاف كلمة. وقد كرست لدراسته ثلاثة آلاف كتاب، عمل كلها على تأويل «كتاب» لاو - تسزي. ولكننا لم نسق هنا سوى بعض ما قاله أشهر الذين علقوا على الكتاب وشرحوه. وها نحن

نسوق أيضاً بعض آيات «كتاب» لاو - تسزي، لكي نعطي القارئ صورة عن صيغة الكتاب وأسلوبه وخصائصه.

الآية 2: تهذيب الذات:

فقط ينبغي على كلّ من في أرض السماء[1] أن يدرك، أن البديع بديع، لكنه بات الآن شراً. فقط يجب أن يعي أن الخير هو خير، لكنه لم يعد الآن خيراً. لأن ما هو موجود وما هو غير موجود، يلد أحدهما الآخر. فالعسير واليسير يشكّل واحدهما الآخر. والطويل مع القصير، يعطي كل منهما الآخر الجسد. والعالي مع المنخفض يتمدد كل منهما نحو الآخر. والصوت واللحن بعضهما مع بعض يتوافقان. و «القبل»، و «البعد» يلي كل منهما الآخر... ولذلك يبدع الحكيم في تبطّله إرشادات صامتة. ينشئ أفواجاً من الأشياء، ولا يرفضها. ينجب، لكنه لا يملك، يبدع، لكنه لا يتفاخر. مآثره تتزايد، ولكنه لا يحيا عليها. وبما أنه لا يحيا عليها، فإنها لا تبارحه.

الآية 3: تهدئة الشعب:

إذا لم تعظّم الحكماء، فلن ينشب الصراع في أوساط الشعب؛ وإذا لم تحرص على ما حصلت عليه بالعناء، فلن يكون في الشعب لصوص. وإذا لم يكن ثمَّة ما يرغّب به، فلن تهيج قلوب الناس. وهاك دواء الحكيم الناجح. اجعل قلوبهم خاوية، واملأ بطونهم، وخفف من غلوائهم، وصلب بنيتهم. لكي يبقى الناس دوماً من غير معرفة، ومن غير رغبات، ولكي لا يجرؤ حتى العارف منهم على الفعل، ازرع التبطّل، عندئذٍ يبرأ كل منهم.

الآية 8: بدّل طبيعتك:

الخير الأسمى كالماء، يحمل المنفعة لآلاف مؤلفة من الكائنات، ولا ينافس أحداً. اختر القسمة التي يزدريها جميعهم، تقترب من الداو. اجعل إقامتك في الأماكن الطيّبة، واملأ قلبك من الينابيع الصالحة، وتواصل مع الناس الصالحين، ونمِّ القدرات الطيّبة، وكن فاعلاً بما ينفع الزمن... ولكن فقط لا تتنافس مع أحد، فتتفادى الحزن!

١- الصين. - المترجم.

الآية 10: القدرة على الإنجاز:

إذا شبكت روحك السماوية وروحك الزمنية، وحضنتهما معاً، فهل تستطيع أن تبقي عليهما؟ وإذا ما سقُت روح التسي إلى حدود الرقة، فهل بمقدورك أن تعود رضيعاً؟ وإذا ما غسلت الرؤية الصوفية وطهّرتها، فهل يمكنك أن تزيل غشاوتها؟

إذا أحببت الناس، وأنت تدير المملكة، أيمكنك أن تمكث متبطلاً؟ وأنت إذ تفتح بوابات السماء وتغلقها، أبمقدورك أن تلتزم الأنوثة؟ وإذا ما تبيّنت الحدود الأربعة عن كثب، فهل تستطيع أن تحتفظ بجهلك؟

أنجب وضاعف.

أن تنجب ولا تتسلط، وتنجز ولا تفخر، وتكبّر ولا تترأس، فإن هذا هو ما يدعى بالغبطة المكنونة.

الآية 16: العودة إلى الأصل:

عندما تصل أطراف الخواء، احتشد في السكون والسكينة. فهنا تُخلق متواقتة آلاف مؤلفة من الأشياء، وأنا أرقب رجوعها.

ها هي الأشياء تنمو، وكل منها يرجع مرة أخرى إلى جذوره. والعودة إلى الجذور طمأنينة، وفي الطمأنينة اكتساب مصير جديد، وفي اكتساب المصير الجديد خلود، وفي إدراك الخلود صحوة. ومن لا يعي السرمدية، يصنع الشرور عامهاً، أما من يعي الأزل، فإنه يستوعبه في داخل ذاته. ومن استوعبه بات نزيهاً، والنزيه رب، والرب، هو السماء، والسماء هي الطريق، والطريق أبدية. حتى إذا اندثر الجسد، فأنت لن تهلك.

الآية 18: التصاغر الدنيوي:

عندما دخل الداو العظيم طور الانحطاط، ظهرت «الرحمة» و «العدالة» و «الواجب». وعندما طفت الحكمة والمعارف إلى السطح، ظهرت الكذبة الكبرى، وعندما ساد النزاع بين الأقارب، ظهر «الإجلال البنوي» و «عناية الوالدين»، وعندما بدأت الفوضى والاضطرابات في البلاد، ظهرت «الرعية المخلصة».

الآية 20: الخلق الغريب:

اترك سعة العلم، فتختفي الأحزان. «النَّعم» و «الكلا»، هل تقف واحدتهما بعيداً عن الأخرى؟ والخير والشر، هل يختلفان كثيراً؟ ما يخافه الناس، لا يمكنك ألا تخاف منه، لكن وأسفاه، كم هم بعيدون عن الصحو. الناس فرحون وغير مبالين،

كأنهم ذاهبون إلى وليمة قربان كبيرة، كأنهم يتنزهون في يوم ربيعي جميل. أنا وحدي فقط، بُحيرة لا تتماوج، أنا كالرضيع الذي لم يغدُ طفلاً بعد. آه كم تعبت! ويهيأ لي أن لا رجعة... الناس عندهم فيض في كل شيء، وأنا وحدي فقط كما لو أني فقدت كل شيء. فأنا أيضاً قلب أحمق فيه خراب! كل شيء جليّ لأهل الباطل، وأنا وحدي جاهل؛ فلأهل الباطل شأن في كل شيء، وأنا وحدي لا مبال. عريض بلا حدود، كما البحر، وكالريح لا أعرف الحواجز... لكلّ من الناس مهارته، وأنا وحدي بليد كالمتوحش. أنا وحدي فقط لا أشبه الآخرين، لأني حريص على مُطعمتي!

الآية 21: خواء القلب:

إهاب الغبطة الكبرى مرهون بالطريق فقط، والطريق بعد أن تشيّأت بالكاد نتبيّنها، بالكاد تومض... لكن في الظلام الدامس، في الوميض، أشكال، وصور، في الوميض، في الظلام الدامس أشياء، في الديجور الحالك تكمن البذور. وتلك بذور عميقة، فيها اليقين.

منذ الأزل حتى اليوم، ذلك الاسم حاضر لا يفارق. لكي يُبصر أبا كلِّ شيء. ومن أين لي أن أعرف كيف يبدو أب كل شيء؟ بفضله هو.

الآية 22: فائدة الخضوع:

من ينحني يسلم، والمتقوّس يستقيم، والعميق يمتلئ، والقديم يتجدد، ومن لديه القليل يكسب، والطمّاع يرتاب. لأن الحكيم الذي ركّز على الواحد الوحيد، هو مقياس لهذا العالم.

لا يعرّف عن نفسه، ولذلك فهو شهير ومُعتَرف به، هو نفسه لا يهاجم، ولذلك له مآثر، ولا يفاخر بنفسه، ولذلك أمده طويل. ليس في العالم من يستطيع أن يقهره، لأنه لا يشارك في صراع.

فالقول المأثور القديم: «إذا ما انحنيت سلمت» ليس جوهراً لكلام فارغ إذاً. حقاً إنه يحمل حكمة.

لقد عرف تاريخ الصين أطواراً أدت الدواسية فيها دوراً مهماً في الحياة السياسية، وكانت تلك هي أدوار الأزمات التي مرت بها السلطة المركزية، وساد أثناءها الاستياء الشعبي في كل مكان. ويعرف التاريخ منها انتفاضة «الأربطة

الصفراء» التي قادها الداوسيون. ففي أثناء وقت قصير أنشأ الساحر الداوسي تشنجان تسزيوي طائفة كبيرة، كانت منظمة تنظيماً عسكرياً صارماً، ومستعدة لاتخاذ أي تدابير كانت ضد الحكومة المركزية. لقد كانت تلك نهاية السلالة الخانية، إذ احتشدت حينئذٍ الرزايا كلها معاً: الأزمة السياسية، والكوارث الطبيعية، والأوبئة. فبدأت القلاقل، ودعا الداوسيون إلى إسقاط السلطة المركزية. واقترحوا بدلاً عنها مملكة العدل الأعظم. وأعلن قائد طائفة الداوسيين، تشنجان تسزيوي، أن العام المئة والأربعة والثمانين سيكون في الصين عام «السماء الصفراء». وهو الطور الذي يحمل للعالم السعادة والرخاء، ويضع حداً نهائياً لعصر «السماء الزرقاء» (أي للسلالة الحاكمة التي عدوها مصدر الشر والظلم). لقد عقد أنصار «السماء الصفراء» أربطة صفراء حول رؤوسهم. ولذلك دخلت الانتفاضة التاريخ تحت اسم، انتفاضة «الأربطة الصفراء».

ولكن السلطة استبقت الأحداث ودمرت الانتفاضة. وقتل قائد الداوسيين في الأحداث، وفرّ من بقي منهم على قيد الحياة نحو الغرب. فقد كانت تنشط هنا في الأقاليم الحدودية، طائفة داوسية أخرى بزعامة تشجان لو. وقد تحول الإقليم إلى ما يشبه الدولة الداوسية المستقلة، لأن السلطة المركزية انهارت، وامتد الطور الفاصل بين السلطتين وقتاً طويلاً بعض الشيء (القرون 3-6م).

لقد قامت دولة الداوسيين هذه، وبنيت على مبدأ الثيوقراطيا. فقسمت إلى أربع وعشرين طائفة دينية. وقام على رأس كل منها أسقف. وكانت سلطة الأساقفة هذه سلطة وراثية. لقد كانت السلطة في كل طائفة بين أيدي المرشدين الداوسيين. وكان يقف على رأس الدولة بطريرك كانت سلطته وراثية أيضاً. وبعد العام 1949م[1]، انتقل آخر بطاركة سلالة التشجانيين هذه إلى تايوان.

١- بعد الثورة الشيوعية في الصين. - المترجم.